المحاضرة الرابعة

الفلسفة الصينية القديمة:

لقد تزامنت الحضارة الصينية القديمة مع العصور المتأخرة للحضارة المصرية القديمة، إذ بلغت نضجها على يد المفكرين العظام من أمثال **كونشيوس ولاؤتسي** في القرن السادس قبل الميلاد، تمثل الفلسفة الكونفوشيوسية أهم وأعظم الإبداعات الفكرية الصينية على مدار التاريخ الصيني القديم والمتوسط والحديث، والمعاصر، إذ لا تزال هذه الأفكار الكونفوشيوسية تؤثر بشكل واضح في الاتجاهات الفكرية المعاصرة مع مراحل التحديث في الصين وفي جنوب شرقي آسيا، كما لا يزال يؤثر علميا في الحياة اليومية للناس..

وقد تميز الفكر الفلسفي الصيني بنزعة إنسانية واضحة، وقد بدأت هذه النزعة الإنسانية تسود الفكر الصيني منذ بداية الوعي الفلسفي الحقيقي لدى الإنسان الصيني، وتميزت هذه النزعة الانسانية بالتركيز على وحدة الانسان وعلى التكامل بين الانسان والطبيعة واعتبار الانسان هو وسيلة تحقيق القيم المطلقة في العالم.

(أ) فلسفة كونفشيوس:

إن المفكر والفيلسوف الصيني الكبير "**كونفوشيوس**" هو واضع أسس المدرسة الكونفوشيوسية التي اشتقت تسميتها الواضحة من اسمه. كما أن عددا من المفكرين اللاحقين له والمتأثرين به، على امتداد الخمسة والعشرين قرنا الماضية، من أمثال المفكر "**مونشيوس**" المعلم الثاني للكونفوشيوسية، والمفكر يذكر أ. توينبي أنه "في فترة لا تتجاوز المئة والعشرين من السنين ظهر خمسة من كبار الحكماء

وكان "**كونفوشيوس**" أحد هؤلاء الحكماء الخمسة الكبار؛ وهو واضع باكورة الفلسفة الصينية ومؤسسها مع المفكر لاو تزو؛ وما يزال تراثه الفكري يؤثر بعمق، بشكل مباشر أو

غير مباشر، في حوالي ثلث سكان العالم. إذ يعتبر فكر "كونفوشيوس" المؤثر الأول والأساس في ذهن وفكر وأخلاق وتقاليد الصينيين.

أثرت الظروف التي عاشها كونفوشيوس كثيرا على انتاجاته الفكرية الغنية، بحيث إن واقع الفقر الذي عاشه في طفولته بالرغم من نبالة أصله، جعله يتجه نحو تقدير الأشخاص الفضلاء ن الناس. ففي الفترة التي عاشها كونفوشيوس، كانت الطبقات النبيلة أو الاقطاعية ما تزال تلعب دورها الهام في الحياة السياسية، إلى جانب دورها الأهم في الحياة الاجتماعية والاقتصادية، وكانت مجمل الظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والتاريخية قد أثرت تأثيرا مباشرا على الانتاج الفكري عند كونفوشيوس، وذلك من خلال ما كونته من اهتمامات ونوازع ذاتية وموضوعية عامة، جعلته يتجه ذلك الاتجاه المقدر للقيم والتقاليد والآداب السابقة. فوجد كونفوشيوس في التراث الثقافي التاريخي الصيني أصل ابداعات الحضارة الصينية الرائعة؛ وهو الأمر الذي جعله يصب كل انتاجاته الفكرية في جمع ذلك التراث وتشذيبه والتعليق عليه.

عاش **كونفوشيوس**، مثل **لاوتزو**، في أواخر المرحلة التاريخية المسماة "**فترة الربيع والخريف**" (722-481 ق.م.)؛ وهي المرحلة العصيبة من تاريخ الصين القديم التي عرفت بالاضطرابات وبانحلال القيم والتقاليد القديمة، مما جعل الحالة العامة في نظر المفكرين في تلك المرحلة، قاتمة السواد. حاول "**كونفوشيوس**"، كما حاول "**لاوتزو**" وغيره من المفكرين، البحث عن الوسائل الكفيلة بإيجاد الحلول الازمة لأزمات البلاد المستعصية.

تنطلق نوازع **كونفوشيوس** ومؤثراته الفكرية، من التناقض الظاهر بين الواقع الحاضر البائس، بين الماضي المزدهر لبلاده، ففي الوقت الذي كان يعبر فيه عن تألمه حيال مآسي واقع البلاد وانهيار النظم المختلفة، كان يظهر شغفه بالتراث الثقافي والحضاري المجسدة للإبداعات الثقافية وللاستقرار السياسي السعيد لحكم أسرة "**تشو**" التي حكمت المنطقة.

توصل كونفوشيوس إلى الاعتقاد، من خلال المقارنة ما بين الواقع الصيني البائس والماضي السعيد، بأن سبب انقسام الدولة إلى ولايات يحكم كل منها أمير وسبب مصائب البلاد عامة يعود إلى انحلال القيم الخلقية الفاضلة وغياب النظام؛ وهو ما أدى إلى سوء الأوضاع الاجتماعية، وأوصل البلاد إلى سيطرة الوزراء ونوابهم، الأمر الذي كان يدفع الناس إلى الثورة لتقويم اعوجاج الحكم والحكام.

كانت طريق **كونفوشيوس** للوصول إلى تحقيق مراده، كغيره من المفكرين في تلك المرحلة، تمكن في شغل المناصب الهامة التي كان يأمل عبرها، بأن يستطيع تحقيق غاياته في الإصلاح. وحين فشل في ذلك، انصرف إلى تعليم الشباب وتثقيفهم، لكي يعملوا هم على تحقيق الأهداف التي عجز هو عن تحقيقها عبر توليه الوظيفة العامة. وتكونت في داره، عن طريق التدريس، أول مدرسة حرة في تاريخ الصين؛ لأن المدارس في تلك المرجلة، كانت ملحقة بقصور الملوك والأمراء، لكي تدرس أبناء الطبقة الأرستقراطية وتؤهلهم لشغل المناصب الحكومية. أما كونفوشيوس، فكان مراده من التعليم شيئا آخر، وهو تنمية العلم والثقافة عند تلامذته وإنارة عقولهم، لكي يقوموا بأدوار فاعلة ويخدم الصالح العام حين يشغلون الوظائف العامة.

كان كونفوشيوس يؤمن إيمانا عميقا بحق كل إنسان في التعلم، غنيا كان أم فقيرا؛ فقد قال "يجب أن تزول الاختلافات الطبقية من التعليم. وإنني لم أرفض قط تعليم أي فرد حتى إن وفد إلى على الأقدام وليس لديه ما يقدمه مقابل تعليمه سوى قطعة من اللحم الجاف". إذ كان يرى في هؤلاء التلاميذ رأي كونفوشيوس بأن السبيل الوحيد الذي يوصل إلى اصلاح المجتمع، هو العودة إلى التمسك بالشعائر والآداب والتقاليد الأخلاقية الفاضلة. ولكنه رأى بأن أول شيء يحقق الوصول إلى إصلاح الأوضاع واستقامة الأمور في المجتمع، هو اصلاح جملة من الأمور والقيام بمجموعة من الواجبات الملقاة على عاتق كل فرد من أفراد المجتمع.

ورأى بأن الطريق الموصل إلى الأخلاق الفاضلة؛ إذ عبرها فقط تتحقق إمكانية إصلاح المجتمع. ففي المعرفة الواضحة وفي التقيد بالواجبات والالتزامات، تكون طريق الإصلاح.

والمعرفة الحقة عند **كونفوشيوس** هي أساس الإصلاح؛ وهي تكمن في تعارف. الناس وتفاهمهم قبل كل شيء، على معاني الكلمات والتعابير؛ لأنه وجد بأن الناس كثيرا ما يتحادثون ويتخاطبون، وقد غابت غنهم أحيانا المعاني الحقيقية للكلمات؛ بحيث إنهم يتخاطبون بكلمات لم تعد تحمل المعاني المشتركة، لا سيما منها تلك الكلمات الدالة على القيم التي تنظم المجتمع وتحدد قيم العلاقات وأصول التعامل بين الناس. فقد أجاب مثلا عن ماهية الحكومة الصالحة بالقول: "توجد الحكومة الصالحة حيث يكون الأمير أميرا، والوزير وزيرا، والأب أبا، والابن ابنا"

ولم يقصد كونفوشيوس بذلك تولي كل إنسان اختصاصه فقط من ضمن التعبير الذي يقصد كنهه ومعناه؛ بل كان يروم من ذلك التركيز على دقة التعبير في إيراد الأسماء والمسميات والصفات في مكانها الصحيح؛ لأن الكثير من العيوب، غطتها الألفاظ. وفي هذا الصدد، ركز **كونفوشيوس** في تصوره لإصلاح المجتمع، على الإنسان الفرد.

ورأى بأنه لا يمكن أن يقوم النظام الاجتماعي على أسس أخلاقية سليمة، ما لم يتم صلاح الإنسان؛ بحيث يكون متمتعا بالمزايا الخلقية العالية التي يتحقق بها، وجود الإنسان الأعلى؛ إذ أن " تنمية الحياة الشخصية، هي أساس كل شيء"، رأى **كونفوشيوس** بأن الإنسان الفرد الصالح هو القاعدة، وهو الأساس في الانطلاق نحو تحقيق إصلاح المجتمع. ورأى بأن الإنسان الصالح الفاضل هو

إذن إن القاعدة التي يجب أن يسير عليها "الرجل الأعلى" (أي "الرجل الماجد") عند كونفوشيوس، تتلخص في كلمة واحدة، هي "المبادلة"؛ أي أنه يجب أن تكون العلاقات بين الناس، قائمة على مبدأ المعاملة بالمثل.

الخاتمة:

استطاع المفكر الكبير كونفوشيوس، عن طريق كتاباته وتعليقاته العديدة، أن يضع جملة كبيرة من الأفكار والعقائد التي تحولت في فترة لا تزيد عن الثلاثة قرون، لتصبح عقيدة يؤمن بها أكثر الصينيين؛ وطبعت الإنسان الصيني وثقافته بطابعها المتميز بالبساطة والتواضع والجلد والرغبة المتأصلة في احترام العادات والتقاليد والآداب الفاضلة المتوارثة. وأصبحت مبادئ كونفوشيوس الخلقية وقناعاته الصلبة المتعلقة بالعادات والتقاليد والآداب المتدخلة في جميع جوانب العلاقات الإنسانية، الاجتماعية منها والسياسية، أساس البناء الأسري الاجتماعي والسياسي على مدار تاريخ الصين الطويل.